طرابلس الغرب أو ليبيا والسنوسيون- لمحة تاريخية عنهم

خليل الخوري

مجلة الأديب – العدد 10

تاريخ النشر: 1/ أكتوبر، 1946م

رئيس التحرير: ألبير أديب

سنوات الإصدار:1942 إلى 1983

نوعية الإصدار: شهرية

بلد الإصدار: لبنان

طرابلس الغرب او ليبيا والسنوسيون

لمحة تاريخية عنهم

بقلم خليل بك الخوري

عاد اخيراً من طرابلس الغرب الاستاذ خليل بك الخوري وكان يشغل منصب رئيس محكمة درنة المدنية وهو شقيق الاستاذين فارس وفائز الخوري وقد نكرم بهذا المقال وهو من المعلومات الشائقة عن هذا القطر العربي الذي يكاد يكون مجهولاً وسيوالي نشر مقالات اخرى عن لوبيا نعرّفها تعريفاً يجمع الى الفائدة ، اللّذه والمتعة .

« الاديب »

☆

يقع هذا القطر العربي بين مصر وتونس في شمال افريقية وتبلغ مساحته حوالي ثلاثة ملايين كيلومتر مربع ، وقد كان حتى سنة ١٩١١ من الاقطار التابعة للدولة العثمانية — دولة الخلافة الغابرة — غزته ايطاليا عنوة في تلك السنة ، والدولة العلية او الباب العالي لا حول لها او له في رد ذلك العدوان . وقد اغمضت دول الغرب الاعين عن الغزو اغراءً لايطاليا بالتخلي عن المحالفة الثلاثية — محالفة المانيا — النمسا — ايطاليا ، وكن يتوقعن قيام الحرب العظمى ، فصمد لذلك العدوان اهل ليبيا[1] انفسهم وقاتلوا الجيوش الايطالية واستبسلوا في القتال ، ولم تلن قناتهم بل ظلوا في الواقع يقاتلونها حتى نشبت الحرب الاخيرة ، فانضموا الى بريطانيا العظمى وحلفائها وساهموا الى ابعد الحدود في احراز النصر ، الذي اسفر عن طرد الايطاليين وحلفائهم الالمان من تلك الديار . . .

الشيخ السنوسي -- وكان على رأس المقاتلين الوطنيين في جميع ادوار القتال الشيخ السنوسي ، والشيخ السنوسي هو زعيم طرابلس الغرب غير منازع منذ مئة سنة ونيف ، والسنوسية وليبيا لفظان مقترنان فلا يذكر الكاتب احدهما الا ذكر الآخر عفواً .

ومن هو الشيخ السنوسي ؟ اينما طفت في ليبيا من « بردية » في اقصى الشرق الى « طرابلس » في اقصى الغرب ، وقراها ودساكرها وواحاتها ومضارب البدو فيها ، رأيت اسم السنوسي محفوراً على الصخور او مكتوباً على الجدران هنا وهناك وفي كل مكان . والبدوي والحضري ، والبدو هم الكثرة الساحقة ، في هذا الاجلال بل التقديس للسيد السنوسي سواء ، فقد ملك هذا الامام القلوب والاجسام . حتى لقد اعادت الى ذاكرتي هذه القدسية العلوية التي يتمتع بها الشيخ السنوسي في تلك الديار ذكرى المنزلة العليا التي للسيد الميرغني في بلاد السودان ، ولكن السنوسية لعبت دوراً في الشؤون الدنيوية والسياسية خلال القرن الماضي وهذا القرن ، اعظم خطراً من اي دور لعبته اية الطرائق الاخرى عدا الوهابية .

ان المنشىء للطريقة السنوسية هو الشيخ محمد بن علي السنوسي الذي ولد في إحدى قرى الجزائر الواقعة بجوار مدينة مسقط غانم ، على ان تاريخ مولده غير معروف على وجه التعيين ، ولكن المرجح انه ولد في سنة ١٧٨٠ . وظهرت عليه منذ صباه العبقرية الفذة والشغف بالعلم ، فتعلم في الجزائر ما تيسر ثم رحل الى فاس للاستزادة من العلم ، وظل في مراكش عشر سنين وامّ بعد ذلك مكة المكرمة اولاً ، لانه لم يكتف بالمقدار الذي تلقفه من العلوم في الجزائر ومراكش ، وكان يبغي العلم الاعلى . وثانياً لانه كان قلقاً من الشقاق السائد بين المسلمين ، ويودّ دعوتهم الى الوئام والى نبذ الخصام ، من مكة مقر الاسلام العام وقبلة المسلمين العليا . سافر من فاس فمر بالجزائر ثم طرابلس ثم بنغازي ثم مصر ثم بلغ مكة ، واتصل فيها بالسيد احمد بن ادريس الفاسي (١٧٦٠ —

(١) درج كتاب العرب القدامى على نقل هذا العلم بالواو لا بالياء حتى بات وضعاً لا محيد عنه على انه الاقوم في ضبط التعريب وقاعدته كما حققه المرحوم احمد زكي باشا في الاعلام الجغرافية . « الاديب »

١٨٣٥) شيخ الطريقة القـادرية — التي هي فرع من الطريقة الشاذلية لا الكيلانية — وكان السيد احمد المذكور الشيخ الرابع للطريقة القادرية التي انشأها في سنة ١٧١٣ الشيخ عبد العزيز ابن الدباغ من اشراف مكة . جاء السيد احمد بن ادريس الى مكة سنة ١٧٩٧ ، والتف حوله عدد عظيم من المريدين لشهرته في التصوف والورع والعلم ، فانشأ طريقة جديدة اسماها الطريقة القـادرية الادريسية ، واتصل به الشيخ محمد علي السنوسي وغدا من اكبر اصحاب الشيخ احمد ادريس . واحرز الشيخ الشاب شهرة انتشرت في كل صقع من اصقاع المسلمين ، وعرف في ذلـك الوقت انه انجب تلاميذ الادريسي ، وظل مصاحباً الادريسي خمس عشرة سنة .

ومن دلائل توثق الصلة بين الشيخ وتلميذه ، انه رافقه الى منفاه في اليمن سنة ١٨٣٣ وبقي معه في منفاه حتى توفي الشيخ الادريسي بعد بضع سنين .

وبعد موت السيد الادريسي انشق اتباعه الى فرقتين : الاولى تحت زعامة الشيخ السنوسي ، والثانية تحت زعامة الشيخ محمد صالح الميرغني . فنظم كل منهما فرقته وخرج بطريقة مستقـلة ، فسميت احداهما الطريقة السنوسية ، والاخرى الطريقة الميرغنية . وانشأ الشيخ السنوسي زاويته الاولى في مكة سنة ١٨٣٧ ، وهي السنة التي يعدها السنوسيون مبدأ نشوء الطريقة السنوسية .

نشأت وترعرعت السنوسية في مكة المكرمة ، ثم انتشرت واتصلت بالطائف والمدينة المنورة وبدر وجدة وينبع . عمد الشيخ السنوسي الى تعليم البدو من تلك المراكز ، حقيقة الاسلام ودعاهم الى نبذ الغزو والترحال والاستقرار في الارض وزراعتها والاغتذاء بنتاجها لا من السلب والنهب . وظل في الجزيرة العربية حتى سنة ١٨٤٠ اذ ابعدته الدولة العلية العثمانية ، وكانت قد دخلت في دور الهرم ودأبت على محاربة المصلحين ، فغادر الشيخ السنوسي الحجاز وعاد الى مصر ، ثم سافر الى واحة سيوه وزار بعض الواحـات الاخرى والجبل الاخضر وبنغازي ، ثم مر بطرابلس في طريقه الى تونس ليلحق باسرته التي سبقته اليها . ولكنه اسرع بالعودة الى طرابلس ، لانه علم ان الفرنسويين يبيتون له الغدر فيما لو عاد الى موطنه في الجزائر ، وكان انى نزل يدعو العرب الى الاتحاد . وفكر حيناً بجعل طرابلس او بنغازي مقر الدعوة ، ولكنه احجم عن ذلك لوقوعهما على الساحل وخوفه من اذى الدولة العلية ، فاوغل في ليبيا وانشأ الزاوية الاولى ، الزاوية البيضاء ، في قلب الجبـل الاخضر . ثم عاد وزار الحجاز سنة ١٨٤٨ ومكث فيهما حوالي ثماني سنين ، وعاد الى ليبيا سنة ١٨٥٦ ولم تكف الدولة العثمانية عن مطاردته ، فعمد الى الانتقال من الزاوية البيضـاء في الجبل الاخضر واوغل في الداخل وانشأ مقره الجديد في واحة جغبوب(١) في اقصى الجنوب . وهنا في قلب الصحراء اسس زاويـة فخيمة ومدارس اصبحت بمرور الايام مقر العلم ومهد السنوسية ، انشأ في زاوية جغبوب مكتبة قيل انها كانت تستوعب ثمانية آلاف مجلد . وقد اصاب هذه المكتبة خلال الحرب الاخيرة تلف جسيم بسبب نقلها من مكان الى آخر صيانة لها من شر الحرب ، ولكن هذا النقل كان من الاسباب التي افضت الى ضياع الكثير منهـا ، ولو بقيت في مقرها في جغبوب لسلمت مما نالها من التلف .

ويقولون ان جغبوب غدت في اواخر القرن السابق اعظم مقر للعالم ، في افريقية الشمالية بعد القاهرة .

ومن الادلة على تعاظم نفوذ السنوسية في ذلك العهد ، ان البدو الذين يقيمون في سلسلة واحات كفرة(٢) التمسوا من الشيخ محمد علي السنوسي انشاء زاوية في بلادهم ، وتعهدوا ان هو لبى بغيتهم ان ينقطعوا عن الغزو والغارات وان يقدموا ثلث املاكهم في الكفرة لخدمة الطريقة . فاوفد الشيخ السنوسي اليهم احـد اصحابه المدعو « سيدي عمر بوحوا » الذي قدم الى الكفرة ، وانشأ الزاوية الاولى في واحة « الجوف » وهي احدى واحات كفرة .

ويقولون ان سبب انتشار السنوسية في وداي (البلاد الواقعة الى الغرب من السودان المصري وشرق بحيرة تشاد) ان الشيخ السنوسي بينا كان يتلقى العلم في مكة في اواخر العقد الرابـع من القرن الماضي ، التقى هناك بأمير من امراء الاسرة المالكة في « وداي » المدعو «الامير محمد شريف» ، فاقبل الامير الشاب على الشيخ واكبر علمه وورعه وتمكنت الصداقة بينهما ، وحصل فيما بعد ان ارتقى الامير محمد اريكة السلطنة في وداي فتجددت الصداقة بينهما ، وانضم السلطان الى الطريقة السنوسية وتبعه في ذلك قومه .

واتفق في ذلك العهد — وكانت النخاسة لا تزال سائدة — ان قدم جماعة من النخاسين بقافلة من العبيد من وداي الى شمال افريقية لبيعهم فاشتراهم الشيخ السنوسي ، ثم اعتقهم واستبقاهم لديـه في جغبوب يتلقون الدين ومبادىء العلم ، واعادهم فيما بعد الى وداي

(١) تقع واحات جغبوب الى الجنوب الشرقي من درنة على مسافة ٥٠٠ كيلومتر .

(٢) تقع واحات كفرة على بعد ٦٠٠ كيلومتر جنوب جغبوب .

احراراً ، فغدوا من الهداة للطريقة السنوسية . فدخل اهل وداي افواجاً افواجاً في الطريقة السنوسية ، واستفحل نفوذ السنوسية في البلاد حتى انضوت تحت لواء الشيخ جميع الاقطار من مصر حتى تونس . وفي التاسع من شهر صفر سنة ١٢٧٦ الموافق ٧ ايلول سنة ١٨٥٩ توفي السيد محمد بن علي السنوسي الذي دعي فيما بعد « بالسنوسي الاكبر » تمييزاً له عن خلفائه ، ودفن في جغبوب واقام له اتباعه بعد موته ضريحاً فخماً ، يحج اليه السنوسيون من جميع الامصار تيمناً وتبركاً .

كان الشيخ السنوسي عالي القامة ذا مظهر جذاب خطيباً مصقعاً ومدرساً حكيماً ، فجذب اليه الالوف من المريدين وكانت له مقدرة خارقة في معالجة البدو المتمردين وفي السيطرة على الجماهير . وفوق تميزه العقلي والخلقي الذي ادهش اصحابه ، فقد امتاز بقدسية علوية عزوا اليه معها المقدرة على اتيان الخوارق والكرامات .

الخليفة الاول السيد محمد المهدي . توفي السيد محمد علي السنوسي او السنوسي الاكبر ، وخلف من الانجال اثنين هما محمد المهدي ولد في سنة ١٨٤٤ ، ومحمد شريف في سنة ١٨٤٦ . فكانت الخلافة بعد السنوسي الاول لابنه الاكبر ، ولكنه لم يكن بعد قد بلغ سن الرشد كي يتولى تلك الخلافة ، فعين اصحاب السنوسي مجلس وصاية للاشراف على اعمال الطريقة وشؤونها مؤلفاً من عشرة من المشايخ المقربين من انصار السنوسي . فلما كبر المهدي تولى بنفسه مقاليد الامور ولكنه اشرك اخاه محمد شريف في العمل ، فتولى هو ادارة شؤون الطريقة واعمالها واشرف اخوه على شؤون التدريس والوعظ والارشاد ، واحرز المهدي نفوذاً عظيماً . اولاً : لانه زعيم الطريقة ونجل السنوسي الاكبر ، وثانياً : لما كان الجماهير يعلقون عليه من الآمال والاماني المرتبطة بفكرة ظهور المهدي او الامام المنتظر ، فاعتقدوا انه هو ذلك المهدي المنتظر بسبب اسمه . اضف الى ذلك انه سادت في الديار الاسلامية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر فكرة قرب ظهور المهدي ، التي اثارها الشيخ محمد احمد الذي ظهر في السودان في سنة ١٨٨١ فادعى انه المهدي المنتظر على ان احداً لم يذكر ان السيد محمد المهدي السنوسي ادعى بانه الامام او المهدي المنتظر ، ولكن انصاره الغلاة استهوتهم هذه الفكرة فاذاعوها على الملأ الاسلامي من اقصى الشرق الى اقصى الغرب ...

ظهر الشيخ محمد احمد الدنقلاوي السوداني سنة ١٨٨١ وادعى انه المهدي المنتظر ، فالتف حوله الانصار والمريدون ثم التجأ الى السيف في وجه من رفضوا دعوته ، فتغلب على الجيوش التي سيقت عليه وتمكن بما لديه ولدى اتباعه من سلاح السيوف والحراب وحماسة الايمان والجذوة المتقدة في قلوب الانصار ، من اكتساح تلك الجيوش والقضاء عليها الواحد بعد الآخر . فاستتب له حكم السودان .

وفي ذلك الوقت اتصل بزعيم السنوسيين وعرض عليه الانضمام اليه فيجعله خليفة له ، وكان مهدي السودان يطمع من ذلك بتأييد السنوسيين الاقوياء . فرفض الشيخ السنوسي الدعوة باباء بل بشيء من السخرية ، واعاد المهدي العرض مراراً ، وكان الشيخ السنوسي في كل مرة يأباها ويستنكرها .

وكان مهدي السودان يعتقد انه اذا انضم اليه السنوسيون - وهم قوة هائلة في شمال افريقية - امكنه بانصار السنوسي المتحمسين اكتساح افريقيا كلها والسيطرة عليها ، فينشر الاسلام والهدى في تلك القارة العظيمة ، ثم يوسع نطاق دعوته حتى تشمل العالم كله . وقد كتب بالفعل الى جميع ملوك الارض وسلاطينها يدعوهم الى الخضوع والاستسلام ، فما لباه احد منهم وانحصر فوزه في السودان ، ما عدا مديريتي حلفا في الشمال والبحر الاحمر في الشرق اللتين بقيتا في يد الحكومة المصرية . ولم يطل امره سوى خمس عشرة سنة ، فانك ملكه سنة ١٨٩٨ واسترجعت السودان ورفرف فوقها العلم المصري مرة اخرى .

وبلغ نفوذ السنوسية في عهد الشيخ المهدي السنوسي الاوج ، وفي سنة ١٨٩٥ نقل مقر الدعوة من جغبوب الى واحة الجوف من واحات الكفرة . اما سبب هذا النقل ، فلكي يبتعد الى اقصى الحدود عن نفوذ السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي كان قد طلب اليه ان يؤازره في الدعوة الى الوحدة الاسلامية العامة ، ويقترب من مناطق النفوذ الفرنسوي الذي بدأ يتسع الى الشمال . ثم عاد وانتقل ممعناً في الجنوب الى « غورو » لكي يحول دون مواصلة الزحف الفرنسوي شمالاً ، وشجع الاخوان على الوقوف في وجه الفرنسويين ومحاربتهم . على ان الفرنسويين برغم المقاومة العنيفة التي لقوها من السنوسيين ، فقد استولوا على « كانم » الواقعة شمال بحيرة « تشاد » ثم وقعت المعركة الحاسمة بين الفرنسويين والسنوسيين في بير العلالي سنة ١٩٠٢ التي اسفرت عن فوز الفرنسويين في التوسع الى الشمال :

الخليفة الثاني السيد احمد الشريف السنوسي : توفي السيد المهدي سنة ١٩٠٢ بعد معركة بير العلالي بقليل ، وقيل ان موته نشأ عن خيبته المريرة في صد الزحف الفرنسوي المشؤوم . وقيل انه توفي

على اثر جراح اصابته في « غورو » حيث قضى ، ثم نقلت رفاته الى الكفرة . ومن الجدير بالذكر ان السنوسيين لا يقولون انه مات موتاً بل اختفى اختفاء ، ومن الاساطير الذائعة بينهم ، انه سوف يظهر يوماً بين قومه . واليك بعض ما قاله خليفته السيد احمد الشريف السنوسي الذي يشير الى اختفائه في رسالته «الانوار القدسية في مقدمات الطريقة السنوسية» : وكانت غيبته عن العيون البشرية لحكمة من الله الرحمان الرحيم ، قبل ظهر الاحد الواقع في ٢٤ صفر سنة ١٣٢٠ الموافق ٢ يونيو ١٩٠٢ .

على ان السيد ادريس نجل السيد المهدي لا يقر هذا القول ، بل يصرح بان المهدي توفاه الله كما يتوفى غيره من الناس وفاة طبيعية غير ناشئة من جراح ، لانه لم يشترك بنفسه في القتال ، وانه لم يدّع قط انه المهدي المنتظر .

وكان من المتوقع ان تؤول الخلافة الى السيد ادريس بصفته نجل المهدي الاكبر كما حصل يوم وفاة السنوسي الاول ، ولكن السنوسيين استنوا على حسب الظاهر سنة جديدة ، فولوا الخلافة للسيد احمد الشريف نجل السيد محمد الشريف بصفته اكبر الراشدين من اسرة السنوسي ، ولم يراعوا السنة المألوفة من ايلولة الخلافة الى الابن الاكبر .

واعاد السيد احمد الشريف فور توليه الامر ، مقر الدعوة من « غورو » الى «الكفرة» ، وواصل خطة سلفه في مناوأة الفرنسويين ومقاومتهم . ومن الجدير بالذكر ان السنوسيين في عهد السيد احمد الشريف نبذوا خطة الدفاع التي كانوا يسيرون عليها قبله ، ولجأوا الى خطة الهجوم ، واسفر هذا العدول عن اشتباكهم في الحرب العظمى الاولى الى جانب الاتراك والالمان ضد بريطانيا وحلفائها . وشايع السيد احمد الشريف السلطان عبد الحميد في سياسته التي كانت ترمي الى الوحدة الاسلامية ، فلما اعتدت ايطالية على طرابلس الغرب سنة ١٩١١ ، انضم الى الاتراك في محاربة الايطاليين ، رغم استنكار السنوسيين حق العثمانيين في تولي الخلافة الاسلامية ، ورغم ما كانوا يقولون ان العرب احق بالخلافة . ولكن عداء الفريقين لايطالية جمع بينهما فلما تخلت الدولة عن محاربة ايطالية وعقدت معها معاهدة ، وتنازلت لها عن ليبيا ، بقي السيد احمد الشريف يحارب الايطاليين هو وقومه بلا هوادة ، حتى نشبت الحرب العظمى الاولى فانضم فيها الى اعداء الايطاليين . وفي خلال الحرب لم يتمكن الايطاليون من الاستيلاء الا على الساحل ، وظل الداخل كله في يد السنوسيين .

ومن ابطال السنوسيين الذين حاربوا ايطالية وكافحوا الكفاح الطويل في سبيل الوطن ، المجاهد العظيم السيد صفي الدين السنوسي ابن السيد محمد الشريف وشقيق السيد احمد الشريف ، ظل يقاتل الايطاليين زمناً طويلاً في المناطق الغربية .

وبقي السيد احمد الشريف في الخلافة حتى سنة ١٩١٨ بعد اندحار الدولة العثمانية وحلفائها ، فخرج من ليبيا الى الحجاز وتوفي بعد ذلك فيها .

الخليفة الثالث الامير محمد ادريس السنوسي : وبعد خروج السيد احمد الشريف ، بايع السنوسيون السيد محمد ادريس السنوسي او سيدي ادريس كما يسميه قومه — يبلغ خمسين سنة من العمر وهو عالي القد ذو محيا صبيح ورأس كونت اروع تكوين واتقنه على منكبين عريضين ذو عينين سوداوين براقتين تستشف منهما عما وراءهما من الاتزان والفطنة — له لحية سوداء مربعة وشاربان مشذبان على سنة الرسول — عليم باحوال المتمدنين والبدو يعالج اولئك وهؤلاء بمقتضى اخلاقهم وعاداتهم — يجله الحضر والبدو اجلالاً عظيماً — له منزلة قدسية علوية اكتسبها لا من كونه نجل السيد محمد المهدي السنوسي الذي طار صيته في الآفاق او حفيد الشيخ السنوسي الاول منشىء الطريقة السنوسية العبقري الالمعي فحسب بل من تحليه بشم السجايا الشخصية التي ميزته على سائر الزعماء في تلك الديار — بعيد النظر الى اقصى الحدود — رأى بلحظ الغيب في الحرب الاولى وفي الحرب الثانية ان النصر معقود لواؤه للحلفاء ، فخالف سلفه الصالح السيد احمد الشريف السنوسي في زج البلاد بالحرب الى جانب المانيا وتركيا — ولما آل الامر اليه في الحرب الاخيرة حشد الاخوان والانصار الى جانب انكلترا وحلفائها فابلى هو وقومه اعظم البلاء ، وساهم السنوسيون في النصر الاخير وطهروا بلادهم من طغاة الايطاليين والالمان .

حظيت بلقاء هذا الامير العظيم مرتين فرأيت فيه الخلال الغر ومكارم الاخلاق والنصفة والعدل والحزم والتسامح مما اعاد الى النفس ذكرى نوابغ العرب المسلمين امثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وعاهل الجزيرة الاعظم عبد العزيز آل سعود .

هذا هو امير ليبيا غير المتوج الذي تتوقع البلاد من اقصى الشرق الى اقصى الغرب المناداة به سلطاناً على ليبيا المستقلة الموحدة .

خليل الخوري